تمويل الهجرة اليهودية المضادة

الدكتور عبد الستار قاسم

دفعت المقاومة الفلسطينية في هذه الفترة العديد من اليهود إلى الخروج من فلسطين بحثا عن الأمن والهدوء والاستقرار. أثقلت المقاومة الأمن الإسرائيلي وصنعت أجواء من التوجس والخوف وعدم الطمأنينة في الشارع الإسرائيلي. كثيرون من الإسرائيليين لم يعودوا يستعملون المواصلات العامة، وآخرون لا يرتادون المطاعم والمسارح والأماكن المزدحمة بالمتفرجين أو المشترين أو المتنزهين. يسير أحدهم في الشارع وهو ينظر حوله مرعوبا، وتتوتر أعصابه مع كل نسمة هواء تحرك علبة فارغة أو تحدث صوتا غير مألوف. إنه يظن أن الساعة ساعته وأن الاستشهادي قد وصل لينفذ عمليته الآن.

قرر العديد من اليهود عدم البقاء في هذه الأجواء الصعبة القاسية والهروب إلى مكان آخر أو العودة إلى البلاد التي أتوا منها. أتى اليهود إلى فلسطين، حسب تفسير الحركة الصهيونية، هربا من الاضطهاد الأوروبي وبحثا عن الأمن في الأرض المقدسة التي أقطعها الرب لهم. فماذا هم فاعلون إذا وجدوا أن الأمن الموعود لا يتحقق، بل أنه متوفر في البلاد التي هجروها أكثر مما هو متوفر في بلاد السمن والعسل؟ قرر البعض أن الرحيل أفضل من العيش في أجواء الشقاء وانتظار الانفجار. الأمن الذي بحثوا عنه غير موجود، وأن الظروف الأمنية في الأرض المقدسة صعبة جدا ولا تتوازن مع كميات السمن والعسل الموعودة.

لكن الذين قرروا الرحيل هم الذين يقدرون على النفقات. الانتقال من بلاد إلى أخرى مكلف جدا ويتطلب سعة من المال. يتطلب الانتقال البحث عن مأوى والقدرة الإنفاقية حتى يتيسر عمل يوفر دخلا وما يتبع ذلك من مصاريف طارئة فيما يتعلق بالأطفال ومدارسهم، الخ. ولهذا اقتصرت هجرة اليهود المضادة على الميسورين الذين يدخرون مالا كافيا. أما الفئات الأقل حظا فعليها الاستكانة للوضع القائم والقبول بمغامرة البقاء في فلسطين. إنها لا تملك أن تغيب يوما واحدا عن مكان عملها لما في ذلك من فقدان لدخل مالي لا يمكن تعويضه.

بما أن المعادلة السكانية حيوية بالنسبة لليهود والعرب، وأن الصراع الديمغرافي يعتبر أحد الملامح الاستراتيجية لمجمل الصراع العربي-الصهيوني فإنه من المهم أن يحرص العرب على أن تميل المعادلة لصالحهم. تكمن مصلحتنا في زيادة عدد السكان العرب في فلسطين وفي تقليل عدد السكان اليهود. ولهذا فإن هجرة اليهود المضادة القائمة حاليا تصب في النهاية في المصلحة العربية. أي أن المسألة تستحق أن تكون سياسة عربية وفلسطينية وأن تستحوذ على أهمية خاصة كما تستحوذ المتغيرات الأخرى ذات العلاقة بالصراع. يشمل هذا تشجيع الإنجاب الفلسطيني وتبني سياسة إنجابية ترافقها عملية بناء اجتماعي وتعليمي وثقافي واقتصادي متناسب مع الزيادة المتوقعة في عدد السكان، وتثبيط هجرة اليهود إلى فلسطين وتشجيع الهجرة المضادة. طبعا لم يتبن العرب أو الفلسطينيون أيا من هذه الخطوات على الرغم من أن العدو يتبنى سياسة سكانية متعددة الجوانب.

أي أن المسألة تستحق توظيف أموال عربية لدعم الهجرة اليهودية المضادة. من الحيــوي رصــد أموال وفتح مكاتب واتخاذ الإجراءات المناسبة لمساعدة من يرغب من الفئــات اليهوديــة غيــر القادرة ماديا على تحمل أعباء الهجرة. لا يوجد لدي الآن تفاصيل حول مختلف جوانب الموضوع لكنه من الممكن أن يصار إلى ذلك إذا تم تبني المشروع. هناك الكثير من اليهــود ذوي الأصــل العربي أو الشرقي الذين باتوا يأنفون العيش في إسرائيل ولكنهم لا يجدون أبواب الهجرة مفتوحــة أمامهم بسبب ظروف ذاتية. بإمكان العرب المساهمة وبفاعلية في التغلب على هذه الأسباب.

ربما يلاحظ القادة العرب أن الكثير من مبادراتهم السياسية لا تلقى الاحترام العــالمي الــلازم ولا تلقى آذانا صاغية، ولا بد أنهم يدركون الآن أن كل ما يدعون إليه عبارة عن ثرثرات أمام الإدارة الأمريكية، وأنهم في النهاية يبقون الطرف الأقل تأثيرا في مجرى الأحداث في المنطقة. ولعلهــم يدركون أن استشهاديا واحدا يؤثر في الأحداث أكثر مما يؤثر مؤتمر القمة. فلماذا لا ينهضون إلى دعم هذا الاستشهادي الذي يمكن أن يضعهم بقوة على الساحة السياســية العالميــة؟ مــن غيــر المطلوب أن يجيش القادة العرب الجيوش أو أن يخوضوا الحروب ضد إســرائيل أو أن يــدفعوا الولايات المتحدة إلى غضب شديد. المطلوب فقط تمويل ذلك اليهودي الذي ملّ إسرائيل وكشــف زيف الصهيونية لمساعدته على الرحيل عن أرض فلسطين. ستغضب أمريكا من هكــذا سياســة عربية لكنه لن يكون مستشيطا من حيث أن جوانبها إنسانية ومن الصعب مواجهتها إعلاميا.

ربما يقول أحدهم أن الأعداء سيتبعون ذات السياسة مع الفلسطينيين. ربما يحصل، بل أنه يحصل الآن. لقد اتبعت إسرائيل منذ العام 1967 سياسة الضغط الاقتصادي والأمني عبى الفلسطينيين من أجل إجبار أعداد منهم على الهجرة التي تبدو طوعية. نجحت إلى حد ما في دفع فلسطينيين خارج البلاد نحو الأردن، لكن الهجرة بقيت محدودة ولم يغادر الفلسطينيون جماعات إلــى دول أجنبيــة ضمن مخطط واضح وسياسة عامة معلنة. والمشكلة الكبرى أمام إسرائيل هو أن الدول المستقبلة للفلسطينيين مثل كندا وأستراليا تبقى خائفة من وجود مجتمع فلسطيني على أراضيها يتطور إلــى مجتمع مناضل مستقبلا، أو إرهابي حسب تعبيرهم. وفي كل الأحوال على طرف الصراع العربي أن يبحث دائما عن وسائل التأثير الأنجع.

ثبت عبر الزمن أن القادة العرب لا يتفقون على سياسة فعالة تجاه إسرائيل، وأنهم يخيبون آمــال الأمة باجتماعاتهم. لكنهم يتفقون في أغلب الأحيان على رصد أموال من أجل دعم الفلســطينيين. صحيح أن درجة الالتزام بالتمويل تختلف من دولة عربية إلى أخرى، لكن العجلة في النهاية تدور ولو ليس دورة كاملة. وربما لا يجدون في هذا المجال نقطة خلاف جوهرية تمزق صــفوفهم أو تجعل لغتهم غامضة قابلة للتأويلات المتعددة. ومن المحتمل ألا يكون الموضوع خلافيا ويحققــون من خلاله نجاحا يستر بعض الإخفاقات السابقة.

قد لا يجرؤ القادة العرب على اتخاذ مثل هذا القرار التمويلي لأنه استراتيجي، ولكــن الموضــوع يبقى مطروحا أمام الأثرياء العرب الذين يلتزمون بقضايا الأمة. هناك من هم قادرون على تبنــي سياسات عامة بهذا الصدد ويؤثرون جوهريا في مجمل الصراع الدائر.